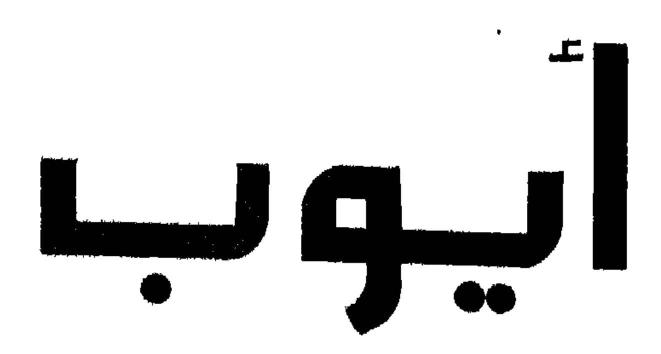
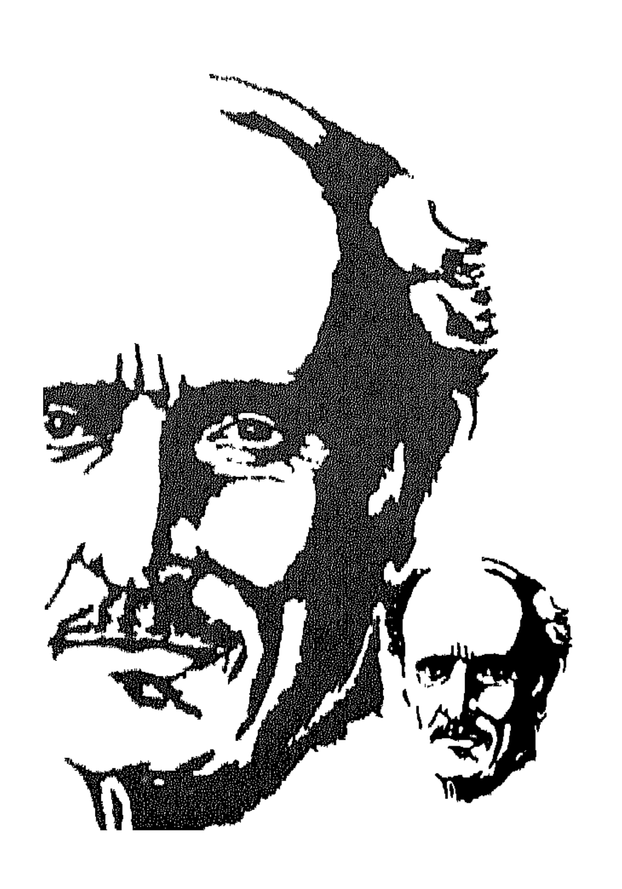
ميخائيل نعيمه







مؤسسة نوفل



ميخائيل نعيمة





الطبعة الثالثة
١٩٨٨



© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل . شارع المعماري
تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ ، تلكس ٤٤٢١ نوفل
ص. ب ١١/٤١٦١ ، بيروت ، لبنان

سِفر أيّوب وهذه المسرحيّة

« سِفر أيّوب »، كما هو وارد في التوراة، يتألّف من اثنين وأربعين فصلاً، فاتحتها وخاتمتها نثر، وما تبقّى فشعر، فهو ضرب من الملحمة. وليس مَن يدري مَن الذي كتب تلك الملحمة الفريدة، وفي أيّ لغة كَتَبَها، ومتى، وأين. وهناك مَن يرجّح أنّها تعود إلى عصر إبراهيم وإسحق ويعقوب.

أما الفاتحة فتروي بمنتهى الإيجاز حكاية أيّوب الذي كان رجلاً صالحاً يعيش في أرض « عُوصٍ »، والذي، لفرط صلاحه، أنعم الله عليه بسبعة بنين وثلاث بنات وبالكثير من الماشية والممتلكات. فكانت حياته مع عائلته حياة رغد لا يشوبه كدر.

« واتّفق يوماً » ـ حسب الرواية ـ « أن دخل بنو الله ليمثلوا أمام الربّ،، ودخل الشيطان أيضاً بينهم ». وعرف الربّ من الشيطان أنّه عائد من جولة في الأرض. فسأله إذا كان قد أمال باله إلى أيّوب الذي « ليس له مثيل في الأرض. إنه رجل سليم، مستقيم، يتّقي الله ويجانب

الشرّ». فكان جواب الشيطان أن أيّوب كذلك لأنّ يد الربّ تسنده وقد أجزلت له العطاء. فليأذن الربّ له ـ أي للشيطان ـ أن ينزع من أيّوب خيراته وبركاته وحينئذٍ سيرى الربّ أن أيّوب سيجحد الله.

واستجاب الربّ لطلب الشيطان. ولكن أيّوب بقي على إيمانه. فلم يعترف الشيطان بانخذاله. بل عاد إلى الربّ يطلب السماح له بتجربة أيّوب في جسده موقناً أن الرجل سيكفر بعدها بالله. فأباح الربّ للشيطان جسد أيّوب دون روحه. فضربه بالقروح الخبيثة من أُمّ رأسه حتى أخمصيه.

وهنا تبدأ المرحلة الشعرية من الملحمة إذ يُقبل على أيّوب أربعة من أصحابه لتعزيته في بلواه. وهؤلاء الأربعة هم: أليفاز التَّيماني وبِلْدَد الشُّوحي وصُوفَر النَّعماتي وأليهو البوزي. فيدور بين أيّوب وبينهم حوار طويل مشبع بالألوان والرموز الشعريّة، وبالتشابيه والاستعارات البكر. فلا أيّوب يقنعهم ببراءته. ولا هم يقنعونه بأنّ ما هو فيه لم يكن غير قصاص له من الربّ لآثام ارتكبها.

ومن بعد أن يتعب الرجال الخمسة من الأخذ والردّ، والكرّ والفر، يُسمع صوت الربّ من العاصفة فيكون فصلَ الخطاب، وفي صالح أيّوب.

وأخيراً تأتي الخاتمة فتردّ إلى أيّوب ضعف ما كان

يملك وتمنحه عائلةً جديدة مؤلّفة كالسابقة، من سبعة بنين وثلاث بنات لم توجد نساء في مثل حسنهنّ في الأرض كلّها، بالإضافة إلى زوجته التي بقيت وحدها في قيد الحياة من عائلته القديمة. وتمدّ الخاتمة في حياة أيّوب مئة وأربعين سنة من بعد تجربته القاسية. فيموت «وقد شبع من الأيّام».

تلك هي حكاية أيّوب الذي بات صبره مضرب المثل. والغريب أنّي ما قرأتها مرّة إلاّ تخيّلت أيّوب أميراً عربيّاً، وتخيّلتُ أرض عُوصٍ التي كان يقطنها كما لو كانت غير بعيدة عن مدينة البتراء الشهيرة. وذلك الخيال بقي مسيطراً على ذهني إبّان كتابة هذه المسرحيّة.

ولو سألني سائل عن العوامل التي دفعتني على تأليف هذه المسرحيّة لأعياني حصرها وتحديدها. وقد يكون أبرزَها رغبتي الدائمة في التفتيش عن الأسباب القريبة والبعيدة التي من وراء الأحداث كبيرها وصغيرها، وبخاصة تلك التي يتعرّض لها الناس باستمرار، أفراداً وجماعات. فأنا رجل يؤمن أعمق الإيمان بأنّ الكون الذي نحن منه وفيه، بجزئيّاته وكليّاته، وبأبعاده الأسطوريّة، والفراغ الهائل الذي يغلّف كلّ منظور وغير منظور فيه، والذي ندعوه «الفضاء» ـ ذلك الكون هو كون منظّم ومدبَّر تنظيماً وتدبيراً يتجاوزان حدود العقل

والخيال. ولكنّنا نحسّهما في كلّ ما يجري فينا وحوالينا ومن فوقنا وتحتنا.

هكذا نحسّ النور والحرارة ولا نعرف ما هو النور وما هي الحرارة. وقد تعلّمنا مع ذلك، كيف نستمتع بالنور دون أن يعمينا النور. وكيف ننتفع بالحرارة دون أن تحرقنا الحرارة. كذلك قل في الهواء، وفي ما ندعوه «الأثير» وكثير غيرهما من القوى التي نحيا بها ونجهل كنهها.

لئن فاتنا أن نعرف المنظِّم فليس يفوتنا أن نتحسّس ما يفعله نظامه فينا وفي باقي الكائنات، وإذا كان للعلم من قيمة فقيمته في افتراضه أنّ هناك نظاماً صارماً يتحكّم في المحسوسات جميعها، ثمّ في محاولته الكشف عن ذلك النظام والسنن التي يسير عليها طمعاً في استخدامه واستخدامها لخير الإنسان في حياته على الأرض.

إلا أن العلم يحصر همّه في المحسوسات. في حين أنّ الإنسان يحيا بأمور كثيرة لا تقع تحت أيّ حسٍّ من حواسّه الخارجيّة. كالمحبّة ونقيضها، والأمل ونقيضه، والإيمان ونقيضه، والطمأنينة ونقيضها، والقناعة ونقيضها، وغيرها وغيرها من الأمور التي تعانيها نفس الإنسان. ناهيك بأشواقه المتأجّجة أبداً إلى وجود لا يعكّره معكِّر، وحياة لا يقطع حبلها الموت. وتلك الأمور وهذه الأشواق

لا بدّ أن تخضع هي كذلك لنظام صارم صرامة النظام المهيمن على الأشياء.

ذلك النظام هو ما أدعوه النظام الروحي، أو النظام الخلقي. وهو يسري على الإنسان وحده دون باقي الكائنات في الأرض، لأن الإنسان وحده يملك قدرة التمييز والاختيار بين الخير والشرّ ويدرك أثرهما في حياته وحياة الكائنات من حوله. فهو مطالَب لا بنتيجة أعماله فقط. بل بنتيجة كلّ ما يصدر عنه من أفكار ونيات وشهوات. لأن هذه كذلك تفعل فعلها في الناس وغير الناس من الكائنات.

وذلك النظام هو ما عبّر عنه الإنجيل بقوله: «كلّ ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم». وهو ما جاء به القرآن في الآية: ﴿ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يَرَه. ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾.

وها نحن ـ في قصّة أيّوب ـ أمام رجل صدّيق، بارّ، لا غبار على إيمانه وتقواه، ولا عُرِف عنه أنّه ارتكب أيّ إثم يستوجب العقاب. ونراه، برغم ذلك، يُعذَّب أفظع العذاب، وبرضى ربّه الذي جاء تحدّياً لتحدي ربّ آخر هو الشيطان. فكيف نفسّر هذا العذاب الذي لم يكن قصاصاً على ذنْب، بل تحدّياً من ربّ لربّ؟ أنقول إن ربّ أيّوب كان في شكّ من محبّة أيّوب له وإيمانه به؟

إذن أين ربوبيته العارفة ما في القلوب والضمائر؟

أم نقول إنّ تحدّي الشيطان أثار ربّ أيّوب فأراد أن يفقأ حصرمة في عين الشيطان ولو كان في ذلك محق عائلة بكاملها؟ إذن أين اتّزانه، وأين عدله ومحبّته ورحمته؟

أم نقول إنّ في الكون قوى تعبث بمقدرات الكون والناس على هواها؟ إذن أين النظام العجيب الذي نبصره ونُحسّه باستمرار في أجسادنا وأرواحنا وفي كلّ ذرّة من الأكوان اللامتناهية التي تكتنفنا من كلّ جانب؟ إنّه الفوضى التي ما بعدها فوضى.

هذه الأسئلة وغيرها من معدنها هي التي حملتني لآخذ من قصّة أيّوب المواد الخام لهذه المسرحيّة التي ليست من النوع المألوف في دنيا المسرحيات. إذ لا صراع فيها بين إنسان ونفسه، أو بينه وبين إنسان مثله، أو بينه وبين الطبيعة. بل هناك صراع بين الإنسان وربّه. وهو صراع مرير لا تخفّف من مرارته نكتة أو بسمة أو مشهد من المرح والمجون. إنّه تفتيش محموم عن جذور الخير والشرّ وعن مبرّر يرتاح إليه الوجدان لقانون الثواب والعقاب - إذ لا بدّ من وجود مثل ذلك القانون.

والذي يستخلصه القارىء من سفر أيّوب هو أن الألم لا يأتي دائماً بمثابة قصاصٍ على انحراف المتألّم عن

النظام المادّي أو الروحي. بل قد يكون في بعض الأحيان تجربةً أو امتحاناً لإيمانه بعدل ذلك النظام وثباته. وهذا الامتحان تفرضه على الممتحَن إرادة غير إرادته. إلاّ أنّها إرادة تعرف أن هذا الإنسان أو ذاك أصبح أهلاً لأن يُمتحن الامتحان النهائي.

وهنا يجدر بي أن أتوقّف بالقارىء أمام خاطرة أوحتها إليّ مطالعاتي لسفر أيّوب. وهي أن هناك كلمتين تتكرّران باستمرار فيحسبهما القارىء العادي مترادفتين لمعنى واحد. وهما كلمة «ربّ» وكلمة «الله». وقد تبيّن لي أن الواحدة لا تقوم مقام الأخرى. فكأنّي بكاتب الملحمة، عندما يذكر الله يعني به القدرة التي منها الأكوان جميعها وبها تتماسك وتحيا. وهذه واحدة لا نظير لها ولا نقيض. وهي فوق الخير والشرّ، ولا تُدرَك بالعقل. والإيمان بها هو الإيمان المحيي. والكفر بها هو الموت.

أما الربّ فهو دون الله قدرةً ومرتبة. فقد يكون هنالك أكثر من ربّ. لكنّما الله واحد أبداً. وهؤلاء الأرباب ليسوا سوى أرواح تصفّت على مرّ الزمان من كدر المادّة فباتت تملك المعرفة والخلود. وهم، مهما يكن عددهم، يتوزّعون فيما بينهم سياسة الكائنات على غرار ما يتوزّع قوّاد الجيش شتى المسؤوليات. وهم الذين يسهرون على تطبيق النظام السرمديّ.

انطلاقاً من هذه الخاطرة أبَحْتُ لنفسي أن أُدخل في هذه المسرحيّة ثلاثة أرباب دعوتهم « أرباب الناس » وثلاثة « أصوات » هي أصواتهم. وجعلت « الشيطان » واحداً منهم لأنّه هو الذي ينفّذ إرادتهم المشتركة. إنّه المجرِّب أو الممتحِن عندما يقضي النظام بالتجربة أو الامتحان.

بقي أن أقول إنّي لم أتقيّد من قصّة أيّوب إلاّ بأبرز الأحداث فيها. حتى هذه تجاوزتها إذ جعلت واحدة من بنات أيّوب تنجو من الكارثة التي ذهبت بإخوتها وأختيها. وقد أسميتها « تليدة » مثلما أسميت أمّها « زُليخة ». والاسمان غير واردين في القصّة. كذلك خلقت شخصاً دعوته « سَرْحبيل » لا ذكر له في سفر أيّوب على الإطلاق. وضربت كشحاً عن الحوار الطويل بين أيّوب وأصحابه فلم أقترض منه غير سطور معدودة من أقوال أيّوب. فالمسرحيّة تكاد تكون بكاملها خلقاً من عندي.

أمّا ما أودعته المسرحيّة من نظريات وافتراضات فلست ساذجاً إلى حدّ أن أتوقّع من القارىء، أو المشاهد، تقبّلها بحذافيرها. وحسبي أن أثير فضوله في قضيّة العقاب والثواب التي كانت، وما برحت، من أعقد القضايا في حياة الناس.

م. ن.

(بسكنتا في ٢٦ آب ١٩٦٦)

الأشخاص:

أيّوب		في السبعين
زُلَيخة	زوجته.	في الستين
تَلِيدة	ابنته.	في العشرين
عوصيب	ابنه.	في الثلاثين
بالاق	أخو عوصيب.	في الأربعين
سَرْحَبيل	حائك.	في الثمانين
الربّ الأبيض		
الربّ الأزرق		
الربّ الأحمر		
أربعة رُسل		
ثلاثة أصوات		

الفصل الأول

بيت كبير مفروش كأحسن ما يفرش بيت أمير عربي. أيّوب جالس على أريكة في صدر البيت وقد أخذ رأسه بين كفيّه، وأسند مرفقَيه إلى ركبتيه. وركّز بصره على الأرض بين رجليه، فكأنّه غارق في تأمل عميق. عليه رداء من الحرير الأصفر، مشقوق من تحت الذقن وحتى منتصف الصدر، ومقصَّب على طرفي الشقّ والكمّين. رجلاه في خفّين أحمرين. لحيته طويلة وجميلة وقد اشتعل فيها الشيب. شعره مسدول حتى كتفيه، ورأسه حاسر. على وجهه الأسمر الذي لا غضون فيه سيماء الوقار والرجولة والحكمة والتقوى.

تليدة

في ثوب فضفاض من الحرير الأبيض يلفّها من عنقها وحتى الكاحل: وتشدّه في الوسط منطقة من حلقات فضيّة. شعرها مجدول في ضفيرتين تبلغان خصرها. في آخر كلّ منهما نقود ذهبيّة، وفي أذنيها قرطان من اللؤلؤ، وفي رجليها خلاخل من الفضّة. قامتها طويلة، ووجهها أسمر جميل. تدخل مهرولة وترتمي عند قدمي والدها واضعة رأسها بين ركبتيه ثمّ تهتف بصوت متهدّج:

أبَتِ!

أيوب

واضعاً يديه بحنوّ على رأسها:

تليدة

تليدة لا تجيب

تليدة! بُنَيَّتي! ما الخَبَر؟

تليدة لا تجيب. أيوب، وقد اشتد اضطرابه، يأخذ رأسها بين يديه ويدير وجهها نحو وجهه:

تليدة! تليدة! ما هذا؟ ماذا دهاكِ يا بُنَيَّتي، يا قُرَّةَ عَين أيُّوب؟ تَبكين؟! وفيمَ البُكاء؟

تليدة تنشج ولا تتكلم، وجسمها يرتجف

تليـ - يـ - ـدة!!! تكَلَّمي. تكلَّمي! هل من خصام جديد بَينَكِ وبينَ أُمِّك؟ بَينَكِ وبينَ أَحدٍ من إخوتك؟ تكَلَّمي ولا تَجزَعي.

تليدة

لا. لا. يا أَبتِ. خصام...

تتوقف هنيهة

أَجل. خصام. ولكنَّهُ من نَوْعٍ ما بَلَوتُ مثله من قبل.

ايوب

ومن هو الخصم؟

تليدة

ليتَني كنتُ أَدري. خصام وليسَ بخصام.
لعلَّه بيني وبين نفسي. أَتَفهَمني يا أَبي؟

ايوب

لا أَفهَم. وأُريدُ أَن أَفهَم.

تليدة

خذني بحلْمِكَ يا أَبَتِ. لساني قَصير. وإدراكي أَقصر. ونَفسي في غايةِ الاضطراب. منذ الصَّباح الباكر يتَمَلَّكني خوْفٌ عظيم.

ايوب

مماذا ؟

تليدة

لا أَعرف. قلبي بحجم حبَّة الخردَل، وبلون
الفحم. لا الشَّمسُ عندي شمس، ولا النَّهارُ
نهار، ولا الأَرضُ أَرض، ولا السَّماءُ سماء،
ولا نَصيبَ لي في أَيٍّ منها على الإِطلاق.
كلُّ ما حواليَّ يضغَطُ عليَّ. أُحِسُّني نَبتَةً
طُفيليَّةً في دنيا كلُّ ما فيها طُفيليٌّ ـ تافه ـ
ممضوغٌ ومتفول. أُحس كما لو كانَت نفسي
تَهرب من نفسي ولا تَجد لها ملجأ. كما لو
كنتُ أَحملُ في يدي جوهرَةً نادرةَ الوُجود
ولكنَّ يداً أُخرى توشكُ أَن تَختَطفها من
يدي. أُحسُّ كأَنَّ صاعقَةً ستَنقضُّ عليَّ من
سماءٍ صافية.

ايوب

أَما تَعرفين أَيّ سبب لشعورك هذا يا بُنيَّتي ؟

تليدة

ليْتني أَعرف .

ايوب

لعلَّه حُلُمٌ أَبصرتِه في المنام ؟

تليدة

لا .

ايوب

لعلَّها كلمة بدرت من أُمّك أَو من أَحَد إخوَتِك وأُختَيك ؟

تليدة

لا شيءَ من ذلك .

ايوب

لعلَّه عرسك الَّـذي اقتَـرب ميعـادُه يُشَـوِّش عليك أفكارَك ويُقلقُ راحتَك ؟

تليدة

لا . لا شيءَ من ذلك البتَّة يا أَبتِ. كلُّ ما أعرفه هو أَنَّ غَيمةً سوداءَ هائلَةً تزحَف عليَّ وتكـاد تلفُّنـي فلا قيمَـةَ لأيٍّ شـيءٍ عنـدي اليوم. لا للحِلَى، ولا للشَّباب، ولا للزَّواج، ولا للمال، ولا لأيِّ شيءٍ تُنبتُه الأَرضُ أَو تَجودُ به السَّماءُ. كلُّه تافه. كلُّه حقير. كلُّه عُصافةُ البَيدر ونفاية المعصرة. هنالك إنسانٌ واحدٌ يَهمُّني أمره...

ايوب

عريسك بالطَّبع ؟

تليدة

بل هو أنتَ يا أَبَت.

ايوب

أنا؟!

تليدة

أنتَ. أنتَ وحدَك.

ايوب

تليدة!

تليدة

أبي. روحي. رجائي. ملاذي. قُلْ لربِّك أن يُميتني ساعةَ يُميتك. لا تَتركني. عِدْني بأنَّك لن تَغيبَ عنِّي. الدُّنيا وكلُّ ما فيها لا تُساوي بدونك نَواة تمرة.

ايوب

وقد تبلّلت عيناه:

ومن أين جاءَكِ هذا الخَوف يا بُنيَّتي، وفي هذا اليوم بالذَّات؟

تليدة

لا أدري. ولكنَّني نَهضتُ من فراشي في هذا الصباح وهو يعصر قلبي ويلفُّ نَفسي بالسَّواد. ولَكَم حاولتُ أن أتَخلَّص منه، أن أصرف عنه فكري بالغناءِ، بالرَّقص، بالتَّبرُّج في اللِّباس والحِلى. حاوَلتُ أن أتَخيَّلَ ما يَنتَظرُني من لَهوٍ ومَرَح فيما لو ذهبتُ اليومَ إلى وليمةِ أخي بالاق. حاوَلتُ أن أتَخيَّلَ الأفراحَ الَّتي سيَحملُها إليَّ عرسي بعد أيَّامٍ - ولكن دون جَدوى. لقد بقيَ الشَّبحُ الرَّهيبُ يُلاحقني ويشدُّ على قلبي بكلاليبَ من حديد. وهو يُلاحقني حتَّى السَّاعة. عَبثاً،

عبَثاً أُحاولُ الهرَب منه. أَبتِ. أَبتِ. لا تَبتعِدْ عنّي. إنَّني وحدي في مَفازَةٍ سكّانُها الضِّباع والأفاعي.

ايوب

حيَّرتِني يا بُنيَّتي. أعرفُ أنَّكِ تملكين حِسّاً مرهفاً لا يملكُه أحدٌ في هذا البيت. بل لا يملكه إلاَّ القَليل، القليل من النَّاس. لكنَّني ما كنتُ أعرف أنَّني أملك ما يُشبهه. انهضي يا ابنتي. انهضي واجلسي بجانبي. هكذا. هكذا.

يُنهضها ويُجلسها إلى جانبه مطوّقاً عنقها بذراعه اليمنى وممسّداً شعرها بيده اليسرى.

تليدة

ماذا تَعني بقولك إنَّك تَملك حسّاً يُشبه حسّي؟

ايوب

أَعني أنَّ شعوري اليوم لا يَختلِفُ كثيراً عن

شعورك. لَكَـأَنَّ الأَرض تَهـرب مـن تَحـت قدميّ. لكأَنَّ عاصفةً تُوشك أَن تَجتاحني. لذلك تَخلَّفتُ اليوم عن حضور وليمة أَخيك بالاق. ولذلك وجدتني غارقاً في التَّأَمُّل.

تليدة

غريب. غريب... وأَنتَ كذلك؟ وما هو تَفسيرك لذلك الشُّعور يا أَبتِ؟

ايوب

لا تَسأَليني تَفسيراً. ليتَه كان لَنا أَن نُفَسِّر أَيَّ شيء ـ حتَّى ما يَبدو لنا وكأَنَّه لا يحتاج إِلى أَيِّ تَفسير.

تليدة

لا بدَّ من سبب. لا بدَّ من أَسباب. لا بدَّ من تَفسير.

ايوب

أَتَعرفين مَن هو الرَّجل الوَحيد الَّذي يَستَطيع تَفسير ما نَحنُ فيه.

تليدة

متلهّفة:

مَن هو؟

ايوب

سَرْحَبيل.

تليدة

سَرْحَبيل الحائك؟

ايوب

لا غيره. إنَّه رجلٌ عجيب، غريب يا تليدة. يجلسُ النَّهارَ بطولِهِ خلْف منـوالـهِ البَسيـط وفي يده المكُّوك يدفعه باليُمنَى ليتَلقَّفه ثم

يردّه باليُسرى. وقد انتَشرَت على منوالهِ خيوط مُتَعَدِّدة الأَصناف والأَلوان والأَطـوال. يَجمعُها هنا، ويفرِّقها هناك. يقطع بعضها، وبعضها يصلُه. ولا يزالُ بها حتَّى يخلُق منها النَّسيج الذي صمَّمـه فـي فكـره وخيـالـه. والنَّسيج قد يكون ملاءَة أَو بساطاً، أَوْ أَقمشة غيرها ممَّا يلبسه أَغنَى الأَغنياءِ، أَو أَفقرُ الفقراءِ.

تليدة

زِدْني عنه يا أَبَتِ.

ايوب

قليل الكلام. عفّ اللِّسان. بعيد النَّظرات. مطمئنُّ القَسَمات ومثقـل بـالسِّنيـن. ولكنَّـه يَحملُها كما تَحملُ الشَّجرةُ المُسنَّةُ أَوراقَها. يُثار فلا يَثور. يُخدَع فلا يَخدَع. لا يَهَب

ولا يَقبَل هِبة. لا ينمُّ ولا يَسمع النَّميمة. قَنوعٌ بما تدرُّه عليه يَداه. صبورٌ لا يَشكو همَّه للنَّاس ولكنَّه يَهتَمُّ لشكاوى النَّاس. حكيمٌ إذا تكَلَّم. وحكيمٌ إذا صمَت. يَعيشُ في دُنيانا وكأنَّه ليسَ من دُنيانا. رجلٌ عجيبٌ، غريبٌ يا تليدة.

تليدة

هيَّا بنا إليه، وفي الحال.

ايوب

رويدك يا بُنيَّتي. تصبَّري. تصبَّري. الصبر مفتاح الفَرَج.

تليدة

الصبرُ على ما أنا فيه أمرُّ ممَّا أنا فيه. الصبر دون الإيمان شَلَل. وأنا الآن مَشلولة.

ايوب

أَلعَلَّكِ لا تُؤمنين؟

تليدة

كنتُ أَظنُّني أؤمن.

ايوب

والآن؟

تليدة

تتردّد في الجواب ثمّ تُجيب بحرقة:

الآن... الآن أَنا ضائعة. أَنا خائفة. أَنا مذعورة. اعذرني يا أَبتِ. اعذرني.

ايوب

أَعودُ فأَقول: تصَبَّري يا تليدة! فلا يَليق بأَيُّوب وبأَجمَل بناتِ أَيُّوب أَن يَظهرا أَمام سرحبيل، أَو أَمام أَيٍّ النَّاس، في مظهر

المَذعور. مظهر مَن أَفقدَه لُبَّه شعورٌ مُبهم بأَنَّ غيمةً سوداءَ تلفُّه وتكاد تخنقُه. ومَن أَدراك أَنَّ تلك الغيمة ليسَت سوى وهمٍ من الأَوهام؟ رويدكِ يا بُنيَّتي. رويدك.

تليدة

ولكنَّني أَتأَلَّم. والغيمةُ السَّوداءُ تضيِّقُ عليَّ أَنفاسي. وليس يَنفعني أَن أَقول لها: رويدك! تصبَّري أَيتَّها الغيمة السَّوداءُ!

ايوب

تعالَي نكشَح الغيمة عنَّا. تَعالَي نَمضي إِلى حيث لا غيوم. تعالَي نُحصي ما أَغدَق الله علينا من الخيرات: سبعة آلاف من الغَنَم. ثلاثة آلاف من الإِبل. خمسمئة فدَّان. خمسمئة أَتان. سبعة إِخوة وثلاث أَخوات، وكلُّهم من خيرة الرِّجال والنِّساء. ليس فينا

مَن يَشكو مَرَضاً من الأَمراض أَو عاهةً من العاهات. صِيتٌ أَطيب عَرْفاً من النَّدّ. وأَنت يا بنَيَّتي قريباً تُصبحينَ زوجةَ أَميرٍ له مثل ما لنا - وأَكثَر - من الخير والصِّيتِ والجاه. أَليسَ حَرِيًّا بنا أَن نَضحك للشَّمس، للقمر، للنُّجوم، للنَّسيم، للتُّراب، وحتَّى للغيوم السُّود؟ قومي نَذهب لعند أَخيك بالاق. وأَنا الكَفيلُ بأَنَّ الغيمةَ ستَتبدَّد هناك في جوِّ الوَليمة المَرِح. قُومي. قُومي.

يأخذ بيدها ويهمّ بالنهوض وإذا زليخة تدخل بغتة في لباس يشبه لباس تليدة، ولكنّه أحمر. زليخة تهرول إلى حيث أيّوب وتليدة فتنتشل الابنة من بين ذراعي والدها وتصيح بأعلى صوتها والغضب يتفجر من عينيها:

زليخة

دَلِّلها بعد! غَنِّجْها بعد! بالغُنج والدَّلال أَفسَدتَ بَنيك وبناتك. تركتَ لهم الحَبل على الغارب. في كلِّ يوم وليمة. في كل يوم

غناءٌ ورقص وسُكر وعربَدة. تَبذير. تبذير.
تَبذير. لو كان مالُك بَحراً لآن له أن ينضب.
جَعَلْتَنا مُضغَةً في أفواهِ النَّاس، وهدفاً
لشماتَتهم. بلاد عوصٍ كلُّها تتَحدَّث عن
حماقاتك وبَذخك. بيتُنا يَميدُ بما فيه ومَن
فيه. جدرانُه تتَصدَّع. وأنتَ لاهٍ ساهٍ كأَنَّ
الأَمرَ لا يَعنيك. قُم. قُم. اذهبْ إلى بيتِ
ابنك بالاق وانظرْ بعينك. واسمَع. بأُذُنك.
قم. قم. لا عشتَ لتَقوم.

ايوب

يبقى جالساً مكانه ويحاول ضبط أعصابه:

كُفِّي يا امرأة. هذا الكَلام سَمِعتُه قبل
اليوم. سمعتُه عشرات المَرَّات. أما عندَك
من جَديد؟

زليخة

جديد؟ جديد؟! أولادك يقتتلون. يكاد

يجري الدَّم. بل لعلَّه يَجري الآن. هذا جديد. اذهبْ وانظُرْ بعينك واسمعْ بأُذُنك. هذا جديد.

ايوب

يضطرب وقد استشعر شيئاً من الصدق في كلام زوجته:

يَقتَتلون؟! وفيمَ القتال؟ وبينَ مَن ومَن؟

زليخة

كمَن ربحت جولة في خصامها مع زوجها:

بين عُوصِيب وبالاق.

ايوب

عُوصِيب وبالاق؟! وحتَّى أمس كانا اثنَين وكأنَّهما واحد. أكاد لا أُصَدِّق.

زليخة

بل صدِّقْ يا مُغفَّل.

ايوب

وفيمَ اقتتالهما ؟

زليخة

كلاهما يَتَّهم الآخر بالزِّنا مع زوجَته يا للعار! يا للفضيحة! النِّساء، النِّساء! لا كان جِنسُنا ـ جنس حَوَّاءَ.

ايوب

ماذا تَقولين يا امرأة؟! هذا غير ممكن في بيت أيُّوب. غير مُمكن. أسَمِعت؟

زليخة

وقد بات ممكناً. وفي بيت أيُّوب. بيت أيُّوب أُسطورَة عاشت لتَموتَ اليوم. بيت أيُّوب ستارٌ من الوَهم الجَميل تُمزِّقه الآن أصابع الواقع البَشع. بيت أيُّوب أبراج من

الرَّمل تَذْروها الرِّياح. ظَنَنتَ نَفسك فوقَ النَّاس. ظنَنتَ نفسك خِدْنَ الله وفي مأمَنٍ من تدابيره وتَقاديره. خاطِبْهُ الآن. سَلْهُ أن يوَفِّق بين ولدَيك، أن يردَّ السَّلامَ إلى بَيتك، أن يُلجمَ العاصفة الَّتي تَهبُّ عليك، أن يكشحَ الغيمةَ السوداءَ من فوق رأسك. سَلْه إذا كان يسمَع. إذا كان يُجيب. ولكنَّه لا يَسمع ولا يُجيب. إنَّه أصَمّ، أبْكَم...

ايوب

وقد أثاره تهكّم زوجته على الله:

كُفِّي عنِ التَّجديف يا امرأة. كُفِّي عن الثَّرثَرة. لَآهوَن عليَّ أن أخسرَ كلَّ ما أملك ـ أن أخسرَ حَياتي ـ مِن أن أسمعَ واحداً من أهل بَيتي يُجَدِّف على الله. مَن أنتِ؟ مَن أنا؟ مَن النَّاس على بَكرة أبيهم؟ ما الأرض؟ ما السَّماوات؟ ما المَسكونة بأسرها أمامَ وجه الله؟..

عوصيب

يدخل بغتة مشعّث الشعر، جاحظ العينين، لاهثاً من شدّة الإعياء، وقد تمزّق قميصه على صدره فبان لحمه. يندفع توّاً نحو والده وهو يردّد مذعوراً:

بالاق. بالاق...

ايوب

ينهض عن مقعده ويمسك بيدي عوصيب:

عُوصيب! وَلَدي عُوصيب. ما بك يا ابني؟

عوصيب

بالاق... بالاق يتَعقَّبني. يريد قَتلي. بالاق فقَد رشده. شربَ حتَّى الجنون.

زليخة (لزوجها):

أَسمعتَ يا مُغفَّل؟ أَرأَيتَ يا مسكين؟ هذا ما أَوصلك إِليه تَساهلك. هذا ما قادك إِليه إِيمانك بإِلٰهك.

تليدة

تندفع نحو عوصيب وتأخذه بين ذراعيها:

عُوصيب! أَخي عُوصيب! لا تَخف. لا تَخف. بالاق لن يمسَّك بأذى.

عوصيب

لستُ أَخافه. أَخافُ الفضيحة. أَخافُ الشّماتة. لو شئتُ لأَردَيتُه بلكمةٍ لا بمدية. لو شئتُ لاستَلَلتُ روحه من بين جنبَيه. لكنَّني ما نَسيتُ مَن أَنا. ما نَسيتُ أَنَّني ابن أَيُّوب. ما نَسيتُ أَبي وأُمِّي وإِخوتي وأَخواتي. لا أُريدُ أَن أُمَرِّغ شرَفهم في الوَحل، في الزِّبل، في الحمإِ المَسنون.

ايوب

بارَك اللهُ فيك يا ابني. هكذا عهدتُك. وهكذا أُريدُكَ أَن تَبقى.

زليخة

لو كان في بَرَكتك وبَركة إلَهك أيٌّ خير لَما كنَّا الآن في ما نَحنُ فيه.

تليدة

الغيمَةُ السَّوداءُ تُطبقُ علَينا يا أَبت.

ايوب

تَباركَت مَشيئَتُه.

تليدة

تصرخ فجأة مذعورة وقد لمحت بالاق قادماً يترنّح وفي يمناه خنجر معقوف.

بالاق! با ـ لاق!! با ـ لا ـ ق!!!

تندفع هي وأمّها نحو بالاق فتقبضان على معصمه وترفعان اليد الممسكة بالخنجر إلى فوق فيقع الخنجر على الأرض. عوصيب واقف كمن يتحفّز للهجوم. أيوب يرتمي على الأريكة ويأخذ رأسه بين كفّيه ويغمض عينيه.

بالاق

بلسان متعتع:

أَين هو ابنك النَّذل يا أَيُّوب؟ سأَحذفه من الوجود. سأُريحُ الأَرضَ من نَتـانَـةِ روحـه. سأَقتُلُه. سأَقـ ـ ـتـ ـ ـلُهْ...

الفصل الثاني

يمثّل المسرح سقيفة في وسطها حفرة طولها متران وعرضها متران وعمقها نحو نصف المتر. في الحفرة منوال قديم انتشرت عليه خيوط من الصوف الأبيض، الناعم. في أسفل المنوال بكرة كبيرة التفَّ عليها بعض من النسيج. سرحبيل الطويل، الهزيل جالس إلى المنوال وظهره إلى النظارة، وهو يدفع المكّوك يميناً ويساراً ويتوقّف بين الفينة والفينة ليسوّي الخيوط أو النسيج بيده. صلعته تلتمع في النور، وما تبقّى من شعره الأشيب ينسدل حتى الكتفين. حركاته تنمّ عن حيويّة غير مألوفة في مثل سنّه. يدفع المكّوك ويدندن:

سرحبيل

خُيوطٌ، خيوطْ.
حريرٌ وصوفْ
وقطنٌ وشَعْرْ.
طِوالٌ، قِصارْ.
نِحافٌ، غِلاظْ.

وَنَوْلٌ عَتيقٌ، هزيلْ
هُزالكَ يا سَرْحَبِيلْ

★ ★ ★

يُطلّ أيّوب من يسار المسرح، وإذ يسمع دندنة سرحبيل يجمد مكانه. سرحبيل يمضي في عمله دون أن ينتبه لوجود أيّوب ويتابع دندنته:

نَحُوكُ. نُحاكْ.
نَحوكُ شِباكاً
فنَغدو شباكْ
تغيب وتَبدو
هُنا أو هُناكْ.
وتبرى الأَكفُّ
ويَبقى النَّسيجْ
ونَبقى نَحوكُ، ونَبقى نُحاكْ
إِلى أَن يُنادي الدَّليلْ
كفاكَ، كفاكْ
أَيا سَرْحَبِيلْ!

يتوقّف هنيهة عن دفع المكّوك ليسوّي بعض الخيوط. وإذ تحين منه التفاتة إلى أيّوب يضطرب ويلقي المكّوك من يده ويستدير في جلسته نحو أيّوب ليقول متلعثماً:

أهلاً... أهلاً بسَيِّدي... أيُّوب. جئتَ تُذكِّرُني بالعباءَة. ألَيسَ كذلك؟ إنَّها، كما ترى، على النَّول. وقريباً أَنتَهي من حِياكَتِها.

ايوب

يقترب من الحفرة حيث سرحبيل ويجلس على حجر عند حافتها.

بل جئتُك لأمر أهمَّ كادَ صوتُك يُنسيني إيَّاه. هي المرَّة الأولى أسمَعُك فيها تُغنِّي. وقد أعجبني صوتُك يا سرحبيل.

سرحبيل

هِهْ. هِهْ. صوت مُتَهدِّج من حنجرة متهدِّمة.

ايوب

وأعجبني قولك: «نَحُوكُ. نُحاكْ»، وإن

فاتَني فهمه. أفلا فسَّرت لي معناه؟

سرحبيل

هِهْ. هِهْ. إنَّها لَدَنْدَنَةٌ لا أكثَر. صنَّفتُها كيفَما اتَّفق. هكذا، هكذا... عَفْوَ الخاطر. أُقَطِّعُ بها الدَّقائق والسَّاعات.

ايوب

ولكنَّها دَندنةٌ مليئَةٌ بالمعاني.

سرحبيل

وأيُّ صوت، أو صورة، أو حركة ليست مَليئة بالمَعاني؟ حتَّى نَقيق الضِّفدع، ونَهيق الحمار، وهَذَيان المَحموم والمَجنون، وقفزة الجندب لا تَخلو من المعنَى. ولكن... لقومٍ يَفقَهون.

ايوب

ولأنّني لم أفقه معنى قولك: «نَحُوكُ. نُحاكْ» سألتك تَفسيره.

سرحبيل

أوقَعتَني في ورطة يا سَيِّدي. وعليك أن تسعفني في الخُروج منها.

ايوب

ورطة؟! وما هي؟ وكيف لي أن أسعفك في الخروج منها؟

سرحبيل

نعم. نعم. ورطة. أكبر ورطة.

يصمت هنيهة، ثمّ يعتدل في جلسته، ويحكّ صلعته، ويسمّر عينيه في وجه أيّوب ويتابع كلامه:

هُناك يا سيِّدي أمور تُحَس ولا تُوصَف. لا

تُفَسَّر. بل إنَّ تَفسيرها يُفسِدُها ـ يقضي عليها تَماماً.

ايوب

مثلاً؟

سرحبيل

مثلاً. مَن هو سَرْحبيل في نَظرك ونظر غيرك من الّذين يعرفونه؟

ايوب

رجل يَحترفُ الحياكةَ ويتقنها غاية الإتقان، ويَمتاز، فوق ذلك، بطيبةِ قلبه، وحدَّة ذكائه، وصفاءِ نيَّته ونَفسه

سرحبيل

لنَضرب كشحاً يا سَيِّدي عن طيبةِ القلب، وحدَّة الذّكاءِ، وصفاءِ النَّفس والنِّيَّة. ولنقل «حائك». وكفى.

ايوب

حائك ـ وكَفى.

سرحبيل

أمَّا سرحبيل فيرى أكثر من حائك في سرحبيل. أو قُلْ إنَّه يرى فيه حائكاً من نَوعٍ لا يخطر في بال الَّذين يعرفونَه.

ايوب

تَقصد حائك أحلام؟

سرحبيل

بل أقصد أكثر من ذلك بكثير. أقصد حائك عوالم. حائك أكوان.

ايوب

أنتَ رهيبٌ يا رجل.

سرحبيل

خذني بحلمك يا سيِّدي. أما ترى معي أنَّ الصَّانع يُفرِغ نَفسه في كلِّ ما يَصنَع؟

ايوب

إلى حَدٍّ ما.

سرحبيل

بل إلى آخر الحدود. بل إلى حيث لا حدود. ها أنا أحُوك عباءَةً لسَيِّدي أيُّوب. وإذ أحُوكُها يَتَولاَّني شُعورٌ غريب بأنِّي أحُوك فيها ذاتي: صورَتي في أدَقِّ تَفاصيلِها، أنفاسي، نَبَضاتي، هَواجسي، أفكاري، طباعي، آمالي، أوجاعي. وبكلمة واحدة ـ كلّ سرحبيل. فسيِّدي أيُّوب، عندما يلبسُها، سيلبس فيها سرحبيل كذلك. أتَفهمي يا سيِّدي؟

ايوب

أظنّ. أظنّ. تابع.

سرحبيل

وسَيّدي أيّوب سيَلبس في عباءَته أكثر من سرحبيل. سيلبس الرَّجُلَ الذي صنعَ النَّول. وسيَلبس النَّباتات والبَهائم الَّتي منها الخيوط، وجميعَ القوى الَّتي تكاتَفت في خلق تلك البهائم والنَّباتات وفي تَغذيتها وتَنميتِها. وهذه مَن يحصيها؟ إنَّها قوى الكَون على بَكرة أبيه ـ مَنظورُها وغير مَنظورِها. إذن سَيّدي أيّوب سيَلبَسني ويلبس الكَون كلّه في العباءَة الَّتي أَحُوكُها له. أَتفهمني يا سَيّدي؟

ايوب

أظنّ. أظنّ. تابع.

سرحبيل

هـذه أُمـورٌ تُحَسُّ ولا تُـوصَـف. حقًّـا إنَّ حرفتي يا سَيِّدي أيُّوب هي أعجَبُ حرْفة. إنَّها حرْفةُ المَسكونَة بأسرهـا. أنـتَ تنسـج باستمرار. أنا أنسجُ باستمرار. كلّ ما في الكون ينسج بـاستمـرار، فـي اللَّيـل وفـي النَّهار. عن وعي وعن غير وعي. حياتنا حياكة دائمَة يا سيِّدي. ويَتـداخَـل النَّسيـج بَعضُه في بَعض وإذا بالنَّاسج هنا يَغدو نَسيجاً هناك. نَحوكُ. نُحاكْ. وإذا الكَون كلُّه نَولٌ هائل. وإذا الَّذي يُنسج عليه نَسيجٌ هائل. وإذا أنتَ وأنا وكلُّ ما في الأرض والسَّماء والفضاءِ ذلك النَّسيج.

ايوب

لعَلَّك تُريد أن تَقول إنِّي وإيَّاك بعض من ذلك النَّسيج.

سرحبيل

بل أُريد أن أقول إنَّنا النَّسيج كلُّه. وفي استطاعة أيّ مَخلوقٍ يُحسّ ذلك الإحساس أن يَقولَ ما أقول. إنَّها قضيَّة إحساس يا سَيِّدي. لا قَضيَّة منطق وبرهان. إنَّها الصُّورة الَّتي تُحَسُّ ولا تُوصَف.

ايوب

تُحَسُّ ولا تُوصَف... صحيح. صحيح. تُحَسُّ ولا تُوصَف. ولكنَّه إحساسٌ رَهيب يا أخي سرحبيل.

سرحبيل

وأين الرَّهبة؟

ايوب

في أن تراك مُتغلغِلاً في الكَون، وترى

الكَون مُتغلغلاً فيك إلى حدّ أن لا يَبقى أيّ فاصل بَينَك وبَينَه.

سرجبيل

وهل يزعجك أن تَعيشَ في كونٍ لا فواصل بَينَك وبين أيّ شيء فيه، فتُفلت من قبضة السّاعات والمسافات لتجدك في دُنيا الأبديّات واللاّنهايات؟

ايوب

أكيد. أكيد. يزعجني أن أذوب ذوبان الملح في الماء. أن أفقد ذاتيّتي - فرديّتي - شخصيّتي. يُزعجني أن أكون ثُمَّ لا أكون.

سرجبيل

ومن قال لك إنَّ الذَّوبان يعني فقدان الكيان؟ إنَّه يعني امتداد الكيان. يَذوبُ الملح

في الماءِ، ويَبقى الملح والماءُ. يضيعُ الخيط في النَّسيج، ويَبقى الخيط ما بقي النَّسيج. وأَنتَ وأنا يا سيِّدي خَيطان في النَّسيج الهائل الّذي هو الكَون. فنَحنُ باقيان ما بقيَ الكَون. والكَون باقٍ يا سيِّدي أيّوب. وهو كلُّه فيك وفيَّ مثلما نَحنُ فيه.

ايوب

رويدك. رويدك يا سرحبيل. دعني أَفهمك. دَعني أَلتَقط الصَّورة. دَعني أُحسَّها.

سرحبيل

بل دَعني أُهوِّن التقـاطَهـا علَيـك. أَغمـض عينَيك يا سَيِّدي أيُّوب.

أيّوب، كالطفل، يمتثل لأمر سرحبيل ويغمض عينيه.

والآن حاول إِذا شئتَ ـ حاول بكلِّ قدرتك

ووَعيـك ـ أَن تـرى أيـنَ تَبتَـدىء صِلاتـك بالكَون وأينَ تَنتَهي.

ايوب

إنَّه لَفَوق طاقتي يا سرحبيل أَن أُبصر لصِلاتي بالكون بداية أَو نهاية. ذلك لأَنَّني لا أُبصر للكَونِ بداية أَو نهاية. إنَّها لَصورة تُحَسّ ولا تُوصَف.

سرحبيل

أَحسَنـت يـا سَيِّـدي. أَحسَنـت. تُحَسّ ولا تُوصَف. هَبك قطرة في مُحيط. أَليسَ أَن كلّ قطرة في المحيط تتَّصلُ بكلِّ قطرة أُخرى وبالمحيط كلِّه؟ أَلَيسَ يتَّصل المحيط بـالأَرض وكلِّ ما فيها وما عليها؟ أَلَيس أَنَّ الأَرض تتَّصل بالفضاءِ وكلِّ ما في الفضاءِ؟ إذن

كيفَ لأيِّ شيءٍ في الكون أن يَنفصِلَ عن أيِّ شيءٍ آخر؟

ايوب

مرَّةً أُخرى أقول: رويدك. رويدك يا سرحبيل. هل لي أن أستَخلص من كلامك هذا أن الكَون بماضيه وحاضره ومُستَقبله يعمل فيَّ وأنَّني أعمل فيه دون انقطاع؟

سرحبيل

أكيد. أكيد. أنتَ تنسجه وهو ينسجك. تَحوكُ. تحاكْ.

ايوب

إذن أينَ مَسؤوليَّتي؟ أين إرادَتي؟ أين حرِّيَّتي؟

سرجبيل

الّذي يَبدو لي يا سَيِّدي هو أَنَّك مَسؤولٌ إلى حدّ ما تَعي نَفسك في غيرك، وغيرَك في نَفسك. وأَنتَ حُرٌّ إلى حَدّ ما تَعي حرِّيَّتك في حرِّيَّةِ غيرك، وحرِّيَّةَ غيرك في حُرِّيَّتِك. ولك أَن تُريد ما تَشاءُ، فيكون لك ما تُريد، إذا لم تُعاكس إرادتُك إرادةَ الكَون. لنا إرادة وللكَون إرادة. وإرادة الكَون وحدَها هي الّتي لا تُقهَر. وهيَ وحدها الّتي لا تَنفكُّ تَعبث بما نُريد، فتُسعدنا حيناً، وحيناً تُشقينا إلى أَن نَعيَها كاملَ الوَعي في إرادتنا، أَو نَعي إرادتنا فيها. فلا نَحُوك غير ما تُريد. ولا نُريد غير ما تَحوك. القضيَّة، كما يتَراءى لي يا سَيِّدي، هي قضيَّة وعيٍ أَوَّلاً وآخراً. فهنيئاً للّذين يَحوكون ويَعون أَنَّ ثَوابَهم وعقابَهم في ما يَحوكون. أُولئك يتَحكَّمون في أَقدارِهم إلى حدٍّ بَعيد.

ايوب

وما دمنا لا نملك ذلك الوَعيَ الكامل دامت
هنالك أُمورٌ كثيرة تُحاكُ لنا في الخَفاءِ
ونَحن عنها غافلون. همْ - مْ - مْ. وهذا
يذكِّرني بالأَمر الَّذي جئتُ إِليك من أَجله
اليوم يا سرحبيل.

سرحبيل

وماذا عسَى ذلك الأَمر أَن يكون؟

ايوب

منذُ يومَين تُلاحقني يا سرحبيل، وتلاحق
ابنَتي تليدة...

سرحبيل

تليدة! بارك الله فيها. لكأَنَّها من غير هذه
الأَرض. اعذرْ مقاطعتي لك يا سيِّدي. تابع.
تابع.

ايوب

تُلاحقنا أَشباح سُود. أَشباح لا نُبصرُها. لا نَعرف ما هي، ولا من أَين هي، ولا غايتها من ملاحقتنا. إِنَّها في الطَّعام الَّذي نأكله، وفي الماءِ الَّذي نَشرَبه، وفي الهواءِ الَّذي نتَنفَّسه. في الفراش، في اللِّحاف في الوسادة. في أَرض البيت وسقفه. في كلِّ مكان.

سرحبيل

ولا تَعرفان لذلك أيّ سبَب ـ عائليّ، صحّيّ، نَفسانيّ؟

ايوب

لا سبَب على الإِطلاق.

سرحبيل

غريب. غريب.

ايوب

أَلا ترى يا سرحبيل أنَّ شيئاً ما يُحاك لنا في الظَّلام، وفي غفلة منَّا؟ أليس ذلك ما قلته لي منذ دقائق؟

سرحبيل

يجمد هنيهة كالمأخوذ. ثمّ. ينتفض فجأة ضارباً جبينه بكفّه. ثمّ يسمّر عينيه في أيّوب ويقول بمنتهى الدهشة والجدّ متباطئاً في تقطيع كلامه:

يا أللّه! يا أللّه! الآن تذكَّرت. في هذه اللَّحظة.

ايوب

وماذا تذكَّرت؟

سرحبيل

تَذكَّرْتُ حُلُماً رأيتُه اللَّيلةَ البارحة، وكان قد غاب عنِّي تَماماً. لقد كان أكثر من حُلم. كان رؤيا. وهو يتَعلَّق بك يا سَيِّدي أَيُّوب. لكنَّ سردَه ليسَ بالأمر السَّهل.

ايوب

هات! هات! حاولْ أَن تَستَعيدَهُ في أَدَقِّ تَفاصيله. اسرده بأَقصَى ما يُمكنك من الأَمانَة.

سرحبيل

سأُحاول. سأُحاول. رأَيتُني في مكانٍ لا هو على الأَرض، ولا هو في السَّماءِ. كأَنَّه مُعلَّقٌ في الفَضاءِ. ورأيتُ فيه جماعةً يُشبهون النَّاس، ولكنَّهم غير النَّاس. يتَحرَّكون بخفَّةٍ هي خفَّةُ الهواءِ. ويتكَلَّمون فتحسب أَنَّهم يتَرَنَّمون. ورأَيتُ في وسط الجماعة ثلاثة يتَصرَّفون وكأَنَّهم أَسياد الجماعة. الواحد في جلبابٍ بلونِ الثَّلج. والثَّاني في جلبابٍ بلونِ السَّماءِ. والثَّالث في جلبابٍ بلونِ النَّارِ. وخُيِّلَ إِليَّ أَنَّ أُولئك الثَّلاثَة ما كانُوا سوى أَربابِ النَّاس. وإِليك ما علق بذهني

ممّا سمعتهم يَقولون:

هنا تطفأ الأنوار جميعها فتلفّ المكان كلّه ظلمةٌ دامسة يختفي معها أيّوب وسرحبيل والنول. ثمّ يضاء على المسرح بالتدريج نور أبيض لطيف يكشف جماعة في ثياب بيض شفّافة ويكشف في وسطها الأرباب الثلاثة الذين جاء على ذكرهم سرحبيل. ثمّ تُسلّط الأنوار على الأرباب الثلاثة وحدهم فيبدأ الحوار التالي فيما بينهم:

الرب الابيض

عندما كوَّرنا الأَرض وزَيَّنّاها أبهجَ الزِّينة، بَذَرنا فيها من بذارنا لنبصر فيه أنفُسنا ويبصر نفسَه فينا. فكان الإنسان. ولكي ندفعَ الإنسان في طريقِ النُّموِّ دفعاً مستَمرًّا زرَعنا في نَفسه بذورَ شهواتٍ كثيرة، وجعلنا لكلِّ شهوةٍ وجهَين ومذاقَين: فوَجهٌ صَبيح ووَجهٌ قَبيح. ومَذاقٌ أحلى من الشَّهد، وآخر أَمَرُّ من العَلقَم. وأبَحنا للإنسان أن يَختبرَ النَّقيضين في كلِّ شيءٍ لعلَّه يَهتَدي في النِّهاية إلى الشَّهوةِ الغلّابة الَّتي سلَّطناها على شهواته

جَميعِها فيحيا بها وحدَها. ألا وهيَ شهوة الوُصول إلى الوَعي الَّذي هو وعيُنا، والفهم الَّذي هو فهمُنا، والحرِّيَّة الَّتي هي حرِّيَّتنا، والدَّيمومة الَّتي هي ديمومَتنا، حيث لا قَبل ولا بَعد، ولا هنا وهناك، ولا أيُّ صراعٍ بين نَقيضٍ ونقيض.

الرب الازرق

لكنَّ الإنسان ما يَزالُ طفلاً. فهو يُغريه بريق الأَشياء وتَستَهويه حلاوتها. وعندما يخبُو البَريق في عَينَيه، وتَنقلب الحلاوة في فمه مرارة، يتَوجَّع ويتفجَّع، ويعزو ما به لا إلى جهلِهِ طبيعة الأَشياءِ الَّتي لا تَثبت على حال بل إلى الأَقدار ـ أَقدارنا ـ ناسياً أَنَّ الأَقدار لَيست سوى النَّتائج المحتَّمة لِما يصدر عنه من أَفكار وأَقوالٍ وأَفعالٍ ونِيَّات وشهواتٍ سَواء كان ذلك عن وعيٍ منه أَو عن غير

وَعي. إنَّه، من حيث لا يعلم، يَقضي لنَفسهِ أو علَيها. ولسوف يعلَم ما ليس يعلَم.

الرب الابيض

شبع فجوع. ريّ فعطش. فرح فحزن. لذَّة فألم. حركة فركود. تلك هي حياة الإنسان. إنَّها رِضاعٌ ففِطام. وستَبقى كذلك إلى أن يَستكمل الإنسانُ نُموَّه فيفطم نفسه عن كلِّ شيءٍ له وجهان ومذاقان ويدرك سرَّ الحياة ـ حياتنا ـ الَّتي هي خارج نطاق الأشياء، وخارج الزَّمان والمكان، وفوق الصِّراع والنِّزاع.

الرب الازرق

قلَّةٌ هم النَّاس الَّذين استَطاعوا أن يَتَحرَّروا من قبضةِ الأشياءِ، فباتُوا يَستَخدمونَها دون أن تَستخدمهم، ودون أن يرْهنُوا لها قلوبهم. من

هذه القلّةِ رجل في أرض عوصٍ اسمه أيّوب.

الرب الاحمر

إنّي أَعرفُ أيّوب من أرضِ عوصٍ وأعرف البَحبوحة الّتي يَعيشُ فيها من بَنينَ وبنات، ومن سائمة وممتَلَكات. وقد عدتُ قبل ساعة من تجوالي في الأرضِ، ومررتُ به فما وجدتُه يَختلف في شيء عن أمثالهِ من المنعَم علَيهم في الأرض. فقَلبُه مرْهون لِما يَملكُ من خيراتِ الأرض.

الرب الابيض

بل هو رجلٌ بارّ. وهوَ، وإن عاش في الأرض، فوجهُه أبداً إلينا، وقلبُه مَعَنا.

الرب الاحمر

من المَظاهر ما يَخدع. فهل تَسْمح لي أن أمتَحِنه؟

الرب الابيض

وكيف؟

الرب الاحمر

أمتَحِنه في ممتكاتهِ وفي بدنه لأُبَيّن لَك أَنَّهُ مملوك ما يَمْلِك، وأَنّ قَلْبَهُ ليس معنا ووجهه لَيْس إلينا.

الرب الازرق

أيوب رجلٌ مُصفّى ومن الأصفياء. وقد صفّتهُ خبرَتُهُ الطويلة في خلال أعمار كثيرَة عاشها على الأرض. فبات يعرف أنَّ كل ما تعطيهِ الأرضُ تستردُّهُ الأرض. ويعرف أن هذه المعرِفَةَ هي وحدَها الجوهرة الثمينة التي يكسبها من حياته على الأرض ولا تستردّها مِنه الأرض. أيوب في العالم ولكنَّهُ ليْس من العالم.

الرب الاحمر

قُلْتُ لك: دعني أَمتَحِنه. دعني أَفطمُه عن أَشياءَ وأَشياءَ. وستسمع صراخَه.

الرب الازرق

امتَحِنه في ما شئت وكما شئت.

الرب الابيض

إِلاَّ أَن تفصل روحَهُ عن جسده.

الرب الاحمر

لن أَبْلُغ به ذلك الحدّ.

ينتهي المشهد بإطفاء الأنوار واختفاء الأرباب ثمّ تُضاء الأنوار فيظهر سرحبيل وأيّوب في وضعهما السابق.

سرحبيل

هكذا رأيتُ يـا سيّـدي. وهكـذا سمعـتُ. وعليْك التَّفْسير.

ايوب

أَما قُلْتَ يا سرحبيل إِنّنا نَحوكُ، نُحاك؟
لعَلَّ شيئاً ما يُحاكُ لأَيّوب في الخَفاءِ. وإِنّه
لشيءٌ رهيب يا سرحبيل. وإلاَّ فَمِن أَين لي
ولتليدة ذلِك الشعور الّذي حاولتُ أَن أَصفه
لك؟

سرحبيل

لستُ أَدري يا سيدي. لستُ أَدري. ساعاتنا
كلُّها حبلى بالمُفاجآت.

يسكت الاثنان ويغرقان في بحران. بعد قليل يدخل الرسل الأربعة بالتتابع. فما يكاد الواحد يؤدي رسالته إلى أيّوب حتى يدخل الآخر. رأس أيّوب ينحدر على صدره أوطأ فأوطأ بعد سماعه كلّ رسالة.

الرسول ا

مولاي. كانت البقر تحرُث والأُتنُ ترعى
بِجانِبها. فوقع عليها أَهلُ سبأَ وأَخذوها

وقتلوا الغِلْمان بِحَدِّ السيْفِ. وأَفلتُّ أَنا وحدي لأُخْبِرَك.

الرسول ٢

مولاي. سَقَطتْ نارُ اللهِ مِنَ السَّماءِ وأَحرَقت الغَنَمَ والغِلْمان وأكلتهم، وأَفلَتّ أَنا وحدي لأُخبرك.

الرسول ٣

مولاي. قد افتَرَقَ الكلْدانِيُّون ثلاث فِرق وهَجَمُوا على الإبل وأخذوها وقتلوا الغلمان بحَدِّ السَّيف. وأَفْلتُّ أَنا وحدي لأُخبرك.

الرسول ٤

مولاي. كانَ بَنُوكَ وبَنَاتُكَ يأكلون ويشربون خمراً في بيتِ أَخيهم الأكبر. فإذا بريح شديدةٍ قد طَلَعَتْ من عُرْض الصحراءِ وصدمت زوايا البيتِ الأربع فسقط على

الغِلمان فماتوا ولَمْ يفلت إلاَّ تليدة وإلاَّي.
وقد جِئْتُ لأُخبرك.

ايوب

ينهض عن الحجر الذي كان جالساً عليه، ويرفع رأسه وذراعيه إلى فوق وبحركة عصبيّة يشقُّ رداءه. ثمّ يتناول مقصّاً كان بالقرب من سرحبيل ويجز شعره. ومن بعدها يجثو على ركبتيه ويقبّل الأرض متمتماً.

عُرياناً خرجتُ من جوفِ أُمِّي وعُرياناً أَعودُ إلى هناك. الـربُّ أَعطـى. والـربُّ أخـذ. فليكن اسمُ الربِّ مُباركاً.

الفصل الثالث

ليلة صافية قمراء. المسرح يمثّل أرضاً عراء في وسطها بقعة من الرماد يتمرّغ فيها أيّوب وليس عليه من اللباس غير مئزز يستر سوءته، وقد هزل إلى حد أن بات هيكلاً عظمياً يغلّفه جلد تفشّت فيه القروح من الأخمصين حتى قمّة الرأس. على لحيته وما تبقّى من شعر رأسه آثار من الرماد. يستوي الرجل جالساً ثمّ يأخذ بيده قطعة من الخزف ملقية بجانبه ويمضي يحكّ بها أماكن مختلفة من جسمه حكّاً جنونياً. أخيراً يطرح الخزفة من يده باشمئزاز ويخاطب نفسه:

ايوب

مجنون! مجنون! لن تَشْفِيَك الخزفة. لا يَشفيك إلاَّ المَوْتُ. ألا ليتك لم تولَد. لِمَ لَمْ تمُتْ من الرحم؟ لا كان نهارٌ وُلدتَ فيه، ولا ليلٌ قيل فيه قد حُبِلَ بِرَجُل. ليكن ذلك النَّهارُ ظلاماً. وذلك اللَيْلُ ليشمَله الديجور ولا يُحصَينَّ بينَ أيام السنة. ليكن ثاكلاً ولا يُسمع فيه ترنيم.

قد اكتسى لحمي دوداً وحَمَأَ ترابٍ. وجلدي تقلَّص وتمزَّق. لقد سئِمَتْ نفسي حياتي. إنّي كرُفاتٍ متسوّس، وكثوب أكلَهُ العثُّ. أُطلقُ شكواي وأتكلَّم بحرارةِ نفسي. كوى البكاءُ خدِّي، وغشِيَتْ جفني ظلالُ الموتِ. أيامي قد انْقضَت، وتَقَطَّعَت مآربي الَّتي هي حظُّ قلبي. ما رجائي؟ قُلْتُ للفساد أَنْتَ أبي، وللديدانِ أَنْتِ أُمِّي وأُختي. أَيَّتُها الأَرض لا تستري دمي. ولا يكن لصراخي قرار.

جيفة أنا وعُصافة لا خَيْرَ فِيها لأيِّ حيٍّ أو ميت. زوى عنِّي إخواني فاعْتزَلتْني معارفي. حتى عبدي أتضرَّع إليهِ فيردُّ عنِّي وجهه. لقد صار نفَسي خبيثاً عند امرأتي، وغدوتُ أبتهلُ إلى أبناءِ أحشائي. حتى الصبيان ازدرَوني. أقومُ فيتهكَّمون عليَّ. لصقَتْ عظامي بجلدي ولحمي. ونجوتُ بجِلد أسناني. ليس إلاَّ

الكلاب تحِنُّ عليَّ فتأتي لتلحس قروحي.
حتى متى يا ربّ، حتى متى؟!!

يعود أيّوب فينطـرح أرضـاً وتمضـي يـداه تفتشـان عـن الخزفة. تدخل بعد قليل زوجته وفي يديها قصعة وإبريق ماء. تخاطبه بتقزُّز وكأنّها تخشى أن يمسّها شيء من صديد قروحه.

زليخة

إليك بعضَ الحَساءِ والماءِ.

ايوب

الحَساءُ والماءُ للأحياءِ. أمَّا أنا...

زليخة

ليتك كُنْتَ في الواقـع ميتـاً. إذن لأرحـتَ واسترحتَ. لكنَّ ربَّك ما شاءَك إلاَّ لعذابي. ليتني أعرف أينَ هو لأمزّق أذنيه بحقدي عليه.

ايوب

لا تجدّفي يا امرأة.

زليخة :

سأجدّف ما دام لي لسان يُجَدّف. وماذا بعد التَّجديف؟

ايوب

الموت الَّذي لا حياةَ بَعْده.

زليخة

إذن جدّف ومُت.

ايوب

إنَّما كلامُك كلامُ إحدى السفيهات. أَنقبل. الخَيْرَ من الله ولا نقبل منهُ الشرَّ؟

زليخة

الشرُّ لمَنْ يصنع الشرّ. أمَّا نحنُ فأيَّ شرٍّ صنعنا ؟

ايوب

سؤالك هو الشرّ بعينه.

زليخة

بل الشرّ أن لا تسأل: ما هو الشرّ؟

ايوب

الشرّ هو ما أنتِ فيه.

زليخة

بل هو ما أنتَ فيه.

ايوب

لعلَّهُ ما نحن كلانا فيه. إنَّهُ رفضُكِ الوجه

الآخر لأيٍّ شيءٍ. إِنَّهُ رفضُكِ زوجاً افتقر بعد غِنًى، وهان بعد عزٍّ، وبات جسمه المقرَّح قذًى في عينيه وأَعيُنِ النَّاس، وقبـولـك بـهِ سليماً، وجميلاً، وحكيماً، وغنيّاً، وكريماً، وجذِلاً، ومُحبّاً، وغير قـابـل للمـوت. إنّـه تهرُّبكِ من دفع ثمن المعرفـة الَّتـي تجعلـك تقبلين الخيرَ والشرّ بـالسـواءِ لتتغلبـي فـي النهاية على الاثنين.

زليخة

وما هو ذلك الثمن؟

ايوب

إِنَّهُ الأَلَمُ الذي نحسُّه كلَّما غاب عن أَبصارنا وَجْهٌ محبَّب إِلينا من وجوه الأَشياء وبرز مكانَه وجهٌ لا نحبُّه. والأَشياءُ تدور يا زليخة كما تدور الفصـول والأَفلاك. فلا محيـص

من رؤية وجهها القبيح بعد الصَّبيح. ثُمَّ إنَّ الثمن هو الصبر على ذلك الأَلَم. الصبر مفتاح المَعرفَة على أن يكون صبراً في قلبه الإيمان بالمعرفة. فالصبر دون الإيمان شلل وفناءٌ بطيء.

زليخة

أَلعلَّ ذلك ما علَّمك إيَّاهُ أَصحابُك الثلاثة ـ التَّيماني والشُّوحي والنَّعماتي؟ لقد سَئِمَتْهم نفسي يلازمونـك سبعـة أيـام وسبـع ليـالٍ صامتين ثم يأخذون يـؤنّبـونـك دون شفقـة ويَعزون بلاياك لكثرة آثـامـك. وسئمـتُ أَن أَكون لهم مضيفة.

ايوب

ذلك ما علَّمني إيَّاهُ أيوب عندما كان يُهادنه الأَلَم قَلِيلاً فتصفو نفسه. أمَّا رفاقي فما

زادوا في بلبلتي إلاَّ بلبلة. ولكنَّهم لم يقولوا ما قالوه إلاَّ بنيّة حسنة. والنيّة الحسنة تخفّف من ثقل الكلمة الثقيلة. ومن يدري؟ فلعلَّ في تأنيبهم أكثرَ من حجَّة صادقةٍ ضدّي. ألستُ إنساناً ومولودَ امرأة؟ ومولود المرأة قليل الأيَّام كثير الشقاء. كزهر ينبت ثم يُقطع، وكظلٍّ يبرَح ولا يقف. فكيف له ألاَّ يعثر؟ كيف له، مهما طال عُمره، أن يعرف حكمة القدير فيحيا بها، ومشيئة القدير فلا يتعدَّاها؟ طفل هو الإنسان مولود المرأة. ومن الحيف أن يُحاكَم مُحاكمة الرّاشدين.

زليخة

وها هو ربُّكَ يُحاكمك كما لو كنتَ في مثل رشده.

ايوب

لعلَّهُ، وهو الأب الصالح، يُؤدّبني ويمتحنني

لأَبلغ رشده. إِنَّهُ لا يعبث ولا يلهو. لا. لا.
الله لا يعبث ولا يلهو.

يسمع الزوجان صوت تليدة آتياً من بعيد فينقطعان عن الكلام ويرهفان آذانهما.

تليدة

يا بناتِ عوصْ!
إليَّ يا بنات عوصْ.
إليَّ بالرَّباب والمزاهرْ
وبالصُّنوج والدُّفوف والكِنَّارَة.
إليَّ بالورود والعطورْ.
إليَّ بالكؤوس والخمورْ.
أُرقصنَ يا بنات عوصْ.
إشربن يا بنات عوصْ.
وَلْترقصِ النجومْ.
ولْيسكرِ القمرْ.

زليخة

وَلَدي ! وَلَدي ! لقد باتت وكأَنَّ بها مَسّاً . لا تأكل ولا تشرب إلاَّ لِماماً. وتكاد لا تعرف النوم .

ايوب

لهف قلبي عليك يا تليدة. ما ذنبك تجازَين بذنوب أَبيك ؟

يقترب الصوت شيئاً فشيئاً .

تليدة

أَنشدن يا بنات عوصْ .
ولتطربِ السماءْ .
ولينتشِ الهواءْ .
ولينهض الذين في الرَّمُوسْ
ليسمعوا معزوفة الشُّموسْ .
في عرس بنت عوصْ .
أَنشدن يا بنات عوصْ !

ايوب

ويح هذا القلب. أما كفاه ما جرع من العلقم؟

زليخة

يبدو أَنَّ في الكأس ثُمالة، وأَنْ لا بدَّ من شربها. أما قلت لك: جدِّف على ربك ومُت؟

تليدة

إليّ يا شبان عوصْ.
وليملإِ الجوَّ صهيلُ جيادكم.
ولترتجَّ الأَرضُ تحت حوافرها.
وليحجبْ بريقُ سيوفكم وجهَ القمر.
ولترتعدْ لأَهازيجكم
فرائصُ الأُسود والنُّمور،
وفرائصُ الموت وربّ الموت.
وليكن في مقدّمتكم عريسي!

زليخة

ولدي! إِنها تُغنِّي عرسها وعريسها. وها هو
عرسها قد انقلب مناحة.

ايوب

وأيّ عرس لَمْ ينقلب مناحة؟

تليدة

عريسي جبهته الشمسْ
وحاجباه قوسا قُزح.
عريسي عيناهُ فَرقدانْ
وفمه فلْقة رمَّانْ.
عريسي شعرُه كَبدُ الليْلْ
ووجهُه قلبُ الصَّباحْ.
عريسي لقمةٌ في فم جائع
وجرعة ماء في بلعوم عطشانْ.
عريسي حُلُمٌ رائعٌ في منام ثكلى

وحرارةُ حياةٍ في مفاصل مشلولْ.

★ ★ ★

إليَّ يا بنات عوصٍ ويا شبّان عوص.
إلى الوليمة التي أعددتها لعريسي.
لقد أولَمْتُ لَهُ أعذبَ أحلامي.
شَوَيتُ قلبي لُماظةً لشرابه.
نحرتُ شبابي ذبيحةً لشبابه.
عصرتُ أنفاسي سُلافةً لأنفاسه.
فرشتُ ضلوعي بساطاً لضُلوعه.
ومن حريق فمي أترعت كأسه.

★ ★ ★

حلّفتكم بشبابكم يا فيانَ عوصٍ
ويا فتياتِ عوصْ،
قولوا لي: لماذا عريسي
يتباطأ في المجيء؟
هلاَّ أخبرتموه

أنَّ الوليمة في انتظاره؟
قولوا له إنَّ شوق العروس إليه
يكاد يلتهمها!
حلَّفتكم، جيئُوني بعريسي!

تدخل بخطوات متثاقلة وعليها لباس أسود شقّ صدره وكمّاه. شعرها منفوش وعيناها الشاردتان تتلفّتان يمنةً ويسرة. تتوقّف بغتة كالمذعورة، ثمّ تندفع نحو أبيها ملوّحة بذراعيها ومنادية بأعلى صوتها:

يا رجالَ عوصْ!
يا نِساءَ عوصْ!
هَلمُّوا، هلمُّوا!
ها هو العريس!

تجمد هنيهة مكانها إذ تدرك أباها، ثمّ تطلق قهقهة عالية وتلفّ أباها بذراعيها محاولة أن تنهض به من الرماد.

لنْ تُفلِتَ منِّي بعد الآن. ها أنت بين ذراعيّ.

ايوب

يحاول الوقوف فلا يستطيع ثم يأخذ يدفع عنه ابنته بكلّ ما تبقّى في ساعديه من قوّة.

ابتعدي عنّي يا تليدة. إليك عنّي. لا تلوّثي يديك بصديد قروحي.

زليخة

تخنقها الدموع، إذ هي تحاول أن تردّ تليدة عن أبيها فتفشل.

تليدة! بنيّتي! يا آخر رجاء لي! لا تلمسيه. في قروحه عدوى. كفاني ما أنا فيه. لا تزيدي في شقائي شقاءً.

تليدة

عدوى؟!!

ترتدّ قليلاً إلى الوراء وكأن كلمة «عدوى» قد أثارت الرعب في نفسها. ثمّ لا تلبث أن تهجم ثانية على أبيها فتنطرح على الأرض بجانبه، وتطوق عنقه بذراعيها، وتمضي تمرّغ وجهها في قروحه، وتأخذ حفنات من الرماد فتذرّها على رأسه ورأسها.

عدوى وفي هذا الرماد؟! هذا الرماد لا تسكنه العَدْوى. إنَّهُ التِّبر وأنقى من التِّبر.

إنّه رماد مجد أيُّوب، وثروة أيُّوب، وسؤدد أيُّوب، ونُبل أيُّوب. إنَّهُ رماد أيُّوب الّذي كان، والشهادة لأيُّوب الّذي سَيكون. هذا رماد المصهر الّذي فيه انْصَهر أيُّوب. رماد الفَيْنَق الذي احترق ليعود فينهض من رماده. هذا الرَّماد رمادٌ مبارك. هذا رمادٌ من موقد الآلِهَة. وهذه هي الـوليمـة التـي أعـددتهـا لعريسي، وأعدَّها عريسي لي. وليمة الرَّماد الطاهر والمُطَهِّر.

أُهربنَ يا بنات عوصْ.

اهربنَ من وليمتي.

وليمتي وليمة الرَّماد.

تضع رأسها في حضن أبيها وتستكنّ. زليخة تضطرب للمشهد أشدّ الاضطراب وتصيح بأعلى صوتها إذ هي تحاول عبثاً أن تسلخ الابنة عن أبيها:

زليخة

تليدة! تليدة! لا تُميتيني مُفتَّحة العينين.

انهضي في الحال. انصرفي من هنا. لم يبقَ لي قلْبٌ يتحمَّل. لم تبقَ لي يدان تقويان على خدمة المقرَّحين، فكيف بالمَجانين؟ عـودي إلى رشدك يا بنيّتي. أبوك لا رجاءَ منه. أبوك يموت مـوتـاً بطيئـاً. أبـوك مـات. أسمعت؟ أبوك مات وامَّحى اسمه من سجلِّ الأحياءِ.

تليدة

تشدّ ذراعيها حول عنق أبيها وتغرز شفتيها في جبهته المقرّحة.

أبي مات؟!! إنَّك تهذين يا زليخة. أيُّوب ما مات ولن يموت. هذا الجبين لا يَمُوت. هاتان العيْنان لا تَموتان. وما هذه القروح في جسم أيُّوب غير أفواه تصرخ: كاسي العراةِ لا يموت. مُطْعِم الجياعِ لا يموت. مَلجأ الغريب واليتيم والأرملة لا يموت. الباسط كفَّهُ للفقير لا يموت. الفاتحُ باب قَلْبِهِ

للقريب والغريب لا يموت. حيٌّ هو أيُّوب.
وحيٌّ هو ربّ أيُّوب.

زليخة

تحاول ثانية أن تسلخ تليدة عن أبيها فتخفق.

قُلْتُ لَكِ انْصَرِفي من هنا. عودي إلى البيت في الحال. تُشْفِقينَ على أبيكِ يتأكَّله الدود. ولا تُشْفِقينَ على أُمّكِ تتأكَّلُها الهموم. يا ويل أُمٍّ تموت ألفَ ميتة في سبيل بنيها وبناتها فلا يعرفون لها جميلاً.

ايوب

دعيها يا زليخة. دعيها تندب أباها. ففي نَدْبها ما يردّ إليه الحياة. لقد أنْستني تليدة قروحي. أنسَتْني أوجاعي. أنْستني أنَّ أنفاسي سائرة إلى التلاشي.

في هذه اللحظة يطلّ على المسرح سرحبيل وهو يمشي

بخطى وثيدة متوكّئاً على عصاه، وإذ يبصره الثلاثة ينقطعون عن الكلام ويحملقون فيه مشدوهين. أمّا هو فيجمد مكانه لأنّه لم يكن يتوقّع وجود أحد مع أيّوب في مثل تلك الساعة.

سرحبيل

اعْذرني يا سيِّدي أَيوب. اعذروني جميعكم. ما كنتُ أُريدُ أَنْ أُقحمَ نفسي في مثل هذا الاجتماع العائلي.

ايوب

لا تعتَذِر يا أَخي سرحبيل. اعتبر نفسك واحداً منّا. ولو أَنَّك عرفت عظيم سروري بقدومك لما اعتذرت. ولكن... ماذا جاءَ بك في مثل هذه الساعة؟

سرحبيل

محبّتي يا سيِّدي.

ايوب

بارِكَ الله في محبتك. وما أحوجني إليها اليوم!

سرحبيل

لولا خشيتي أن أُثقّل عليك لكُنْتُ ألصقَ بك من ظلِّك طوال أيَّام محنتك.

ايوب

مِثلكَ يخفِّف ولا يُثقّل يا أخي سرحبيل.

سرحبيل

ثمَّ إنَّني سمعتُ عن قدوم أصحابك إليك من بعيد فما شئتُ أن أزجَّ بنفسي بينهم، وهم مَن هم في دُنْيا العلم والحكمة، وأنا مَن أنا في جهلي وسذاجتي.

ايوب

لعلَّ في جهلكَ وسذاجتك من الوعي والفهم
فوق ما في علمهم وحكمتهم بكثير. أما قُلْتَ
إنك جئتني مدفوعاً بمحَبَّتك لي؟ أمَّا هم فقد
جاؤوني بدافع الشفقـة المستعليـة والمأخـوذة
بحسناتها إزاءَ مساوىء الغير. حسبك يا أخي
أنَّك قد عرفت المحبَّة.

سرحبيل

لا. لستُ أدَّعي أنَّني عرفتها، وأقول إنَّها هي
الَّتي عرفتني. وكثيراً ما أخشى أن أذكر
اسمها بلساني مَخافة أن أُدنِّسها.

تليدة

تهمّ بالنهوض لتندفع نحو سرحبيل، لكنّها تعود فتنكفىء
على أبيها مصوّبة نحو سرحبيل عينين مليئتين بالدهشة.

عظيم! عظيم أنت يا حائك الصوف والقطن
والحرير.

ايوب

ولماذا أحببتني يا سرحبيل؟

سرحبيل

لأنَّني لا أستطيع إلاَّ أن أُحبَّ نفسي.

ايوب

وما دَخل نفسي في نفسك؟

سرحبيل

أنسيتَ يا سيّدي حديثنا أمام النول؟ أحوكك في حياتي، وتحوكني في حياتك. ألبَسك فتلبسني. أتنفَّسك فتتنفَّسني. آكلك فتأكلني. أحيا بك فتحيا بي. نورك نوري، وظلامك ظلامي. قوّتك قوّتي، وضعفك ضعفي. نحُوك ـ نُحاك. لذلك أُحبُّك. أُحبُّك لأني أُحبُّ نفسي. وحدها المحبَّة هي الحياة وكلُّ ما عداها موت.

تليدة

أَتُحِبُّني أنا كذلك يا سرحبيل؟

سرحبيل

أَتسأَلين وأَنتِ المَحبَّةُ مجسَّدةً في شكل بشريّ؟

زليخة

بانكسار وكأنّها تخشى أن يأتيها الجواب نفياً:

وأَنا كذلك يا سرحبيل ـ أَتُحبُّني؟

سرحبيل

وأَنتِ كذلك يا سيِّدتي ـ أُحبُّك.

تليدة

وهَلْ تُحِبُّ الموتَ يا سرحبيل؟

سرحبيل

أَجل، أُحبُّه.

تليدة

تحبُّ الفناءَ؟!!

سرحبيل

لا. بل أُحبُّ البقاءَ. والموت هو الباب الَّذي أُطِلُّ منه على عدم الفناء.

تليدة

لستُ أَفهم ما تقول.

سرحبيل

ليس الموت عندي سوى انفكاك قبضتي عن كلِّ ما يحول ثمَّ يزول مهما يكن فيه من فتنة وإغراءٍ لحواسِّي الَّتي تحول، هي كذلك، ثمَّ تزول.

تليدة

وماذا يبقى منك إذا أنت فككت قبضتك عن كلِّ ما يحول ثمَّ يزول؟

سرحبيل

تمضي القبضة وما قبضت عليه ويبقى الَّذي قال: ها أنا أفكّ قبضتي عن أشياءَ كُنت أحسبها جواهر فإذا بها ريح لا أكثر. لقد كنتُ كالقابض على الرِّيح.

تليدة

ولماذا لا تفكّ قبضتكَ الآن؟ لماذا لا تموت بإرادتك لا قَسْرَ إرادتك؟

سرحبيل

لأنَّ للموت، مثلما للولادة، مواقيت. والمواقيت ليست في قبضتي.

ايوب

سرحبيل!

سرحبيل

نعم يا سيّدي أيُّوب.

ايوب

أَما تظنّ أَنّ ما أَنا فيه ليس غير دعوةٍ لي لفكّ قبضتي عن كلِّ ما كنت أَحْسَبُ أَنْ لا حياة لي إلاَّ به وفيه؟ عن ممتلكاتي: عن جاهي. عن صيتي العريض. عن ذرِّيَّتي. عن جسدي الَّذي هو أَروَعُ الرَّوائع في تركيبه وتعاطفِ أَجزائه وشدِّها بعضها إلى بعض. وأَخيراً عن ذاتي الَّتي تأبى الانفصال عن أيّ شيءٍ من هذه الأَشياء.

سرحبيل

إنَّهُ لكذلك يا سيِّدي أيُّوب. هكذا يتراءى

لي. أُذكر الرؤيا الَّتي رويتُها لك قبل أَيام. أَنت، في نظري، أَحقّ بالتهنئة منك بالتعزية. أَنت رجلٌ مغبوطٌ يا سيّدي. فالذي أَنت فيه هو المصهر الأَخير الَّذي لا مناص لكلِّ نفسٍ بشريَّة من الانْصهار فيه لتعيَ أَنَّها بذار أُلقيَ في هذه الأَرض ولكنَّهُ ليس من الأَرض.

ايوب

سرحبيل، يا سرحبيل! من أَين أَرسلك اللهُ إليّ؟

سرحبيل

أَرسلَتْني، كما قلتُ، محبَّتي. أَو قُل هي حاجتي إليك وحاجتك إليّ. فالمحبَّة هي حاجة النفس الأُولى والأَخيرة. إنَّها الحاجة الأَبديَّة.

ايوب

لقد هبطَتْ عليَّ كلماتك هبوطَ المنِّ والسَّلوى على الجياع التائهين في القفـر. اليـوم ـ الآن ـ في هذه اللحْظَةِ ـ أَخذتُ أَشعر بأَنَّ محبَّتك ومحبَّةَ تليدة ـ هذا الملاك في زِيِّ إنسان...

زليخة

ومحبَّةُ زليخة!

ايوب

ومحبَّةَ زليخة هي الَّتي كانت بَرْداً وسلاماً لي وسطَ نيـران مصهـري، فمـا احتـرقـتُ ولا ترمَّدت. ها إنّ قبضتي تتحلحَلُ عن الأَشياءِ فَتَتَحَلْحل قبضة الأَشياءِ عن خناقـي. ليتنـي تعلَّمتُ من زمان كيف أَستخدم الأَشياءَ دون أَن أَدَعَها تستخدمني. فأَستغني بها ساعة أَشاءُ

وأستغني عنها ساعة أشاء. ها هي مفاصلي تتشدّد، وعروقي تتجدّد. ها هي عيني تنقشع عنها الغشاوة، وأُذُني يُستَلُّ منها السِّطام.

ها هو قلبي ينبض نَبْضاً سويّاً، ودمي يروّي قروحي فتجفّ، وتورق في مكانها العافية.

ها أنا أنْهَضُ على رجليّ ولا أخشى الانهيار، وأرفَعُ ذراعيّ فلا يردّهما العياءُ إلى أسفل.

ينهض فتنهض معه تليدة. ويرفع ذراعيه إلى فوق فترفع ذراعيها.

ها أنا أيّوب جديد.

سرحبيل

طوباك تخرج من مصهَرِك خروج الظافرين.

تليدة

طوباك مُحبّاً ومحبوباً.

زليخة

طوباك مؤمناً صَبَرَ فنال.

في هذه اللحظة يُسمع صفير عـاصفـة هـوجـاء فينغمس الجمهور والمسرح في ظلمة دامسة. ثمّ يسمع صوت من العاصفة فيتركز على المسرح نور كأنّه نور القمر فيكشف سرحبيل وزليخة ساجدَين وأيّوب وتليدة منتصبين وقد رفعا بَصَرّيهما إلى فوق.

الصوت ا

أُشدُدْ حقويكَ يا أيّوب وكن رجلاً.

بذارٌ أَنت من بذارنا. وقد بذرناك في الأَرض لا لتتملَّـك الأَرض فتتملّكـكَ الأَرض، بـل لتعود إلينا بعد أَن تستكمل نضجك عارفاً أَنْ لا حياة لك إلاَّ في حياتنا، وأَنَّ حياتنا وحدها هي الَّتي لا تموت. اذاك ننميك في الأَرض، ثمَّ نحصدك، ثم ندرسك، ثـمَّ نـذرّيـك مـن

أَحساكك، ثم نغربلك من أدرانك، ثمّ نعود فنبذرك الكرَّة بعد الكرّة إلى أن تتصفّى من أشواقك جميعها ما خلا الشوقَ إلينا وإلى الذوبانِ فينا.

الصوت ٢

عظيم أنت يا أيّوب. ولكن لا بلحمك وعظمك ودمك. بل بما أودعناهُ فيك من نفوسنا. لقد فتنتك مباهج الأرض فنسيت أنّ الفتنة ليست في الأرض بل في القدرة الّتي كوّرت الأرض. وهي قدرتنا. وقد أعطيناك المفتاح إليها. لكنَّك انشغلت عن المفتاح بما نثرناهُ من مغريات في طريقك إلى الباب. فكانت خيبتك، ومَع الخيبة الوجع، وبعد الوجع الموت.

وفتَنَتْك مباهج الشّموس والنجوم والمجرّات في أفلاكها فنسيتَ أنّ الفتنة ليست في

الشموس والنجوم والمجرّات، بل في القدرة الّتي كوّنتها. فهي للزّوال. أمَّا القدرة فباقية. وهي أَبقى من الزمان والمكان وجميع ما فيهما. وتلك القدرة هي قدرتنا. وقد زوّدناك بكلّ ما تحتاجه لتجعلها قدرتك. لكنَّك التهيتَ بزاد الأَرض عن زادنا. ولذلك سَلَبْناك المقدرةَ على التمتُّع بزاد الأَرض لعلَّك تعود فتجوع إلى زادنا. فاشدُد حقويك يا أَيُّوب وكُن رجلاً.

الصوت ٢

لقد كانَ من نصيبي يا أَيّوب أَن أَبلوكَ لأَردّك إلى رشدك. فبَلَوْتُك أَوجع البلوى. ولقد سمعنا شكواك في بلواك. فما عجبنا للَّحم والدَّم يشكوان فطامهما عن أَشياءَ تُدغدغ اللّحم والدّم. وأَبهَجَنا أَن تتبطَّن الشكوى عن صبرٍ لا نفاد له وإيمانٍ بأَنَّ بعد

مرارة الصبر حلاوةَ الانعتاق.

لذلك فها نحنُ نبشّرك بالانْعِتاق من بلواك، ونردُّ إليكَ ضعفَ ما سلبناكَ إيّاه من متاع الدنيا واثقين من أنّك لن تقبض عليه قبض الغريق على خشبة. إذ لا نجاة فيه. ثمَّ ها نحن نزيد في أَجَلك مئةً وأَربعين عاماً عساك تستكمل نضجك في خلالها لتعود إلينا مصفًّى من أدرانك جميعِها، وعارفاً أنّ حياتنا وحدها هي حياتك. فلا نبذرك من بعد ذلك لننميك، ثمّ نحصدك وندرسك ونذرّيك.

فاشدُد حقويك يا أيّوب. وكن رجلاً.

تنقطع الأصوات فيُسلّط على المسرح نور قوي. سرحبيل وزليخة ينهضان مأخوذَين. تليدة تبقى مسمّرة مكانها وقد عَلِقت عيناها بأبيها أيّوب يخرّ ساجداً وهو يردّدّ:

ايوب

ها أنذا ذليلٌ، فبماذا أُجيب؟ إني أجعل يدي

على فمي. قد تكلَّمتُ مرّة فلا أعود، ومرّتين فلا أزيد. ولقد عرفتُ الآن حلاوة الصمت ومرارة الكلام. ربّي. كنتُ قد سمعتك قبل اليوم سمع الأذن. أمَّا الآن فعيني قد رأتك.

ينهض ويرفع ذراعيه وعينيه إلى فوق.

الفصل الرابع

سرحبيل في وضع كالذي كان فيه في بدء الفصل الثاني.
يدفع المكّوك ويدندن:

سرحبيل

أَنا هو النَّول.
وأَنا الخيط
والحائك.
والَّذي أَحوكه
هو نفسي.
أَحوكها من كلّ ما مات
وما هو حيّ،
ومن كلّ ما لَمْ يولَدْ بعد.
والَّذي أَحوكه
لا تستطيع أَيّ يدٍ
تفكيكَ حياكته ـ

حتى ولا يدي.
تلك هي حكايتي يا عابر السَّبيل.
فلا تسَلْني زيادة.
واضرعْ معي
كيما تكون المحبَّة قائدةً للمكُّوك في يدك،
مثلما هي قائدة للمكُّوك في يدي،
في هذه اللحظة
الَّتي أراك فيها على نولي،
وتراني على نولك،
صورةً رائعةً كالقَدَر
وسِرًّا سَرمديّاً كالله.
والآن سِرْ في طريقكَ بسلام،
ولا تقل لي: «وداعاً».
فأَنا لا أَقول «وداعاً» لأَحد.
أَنا ماضٍ في حياكتي.

يُسدَل الستار على مَهَل.

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
الأوثان
كرم على درب
لقاء
صوت العالم
كتاب مرداد
مذكرات الأرقش
ومضات (شذور وأمثال)
النور والديجور

في مهب الريح
دروب
النبي
أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون ١/٣
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
نجوى الغروب
من وحي المسيح
أحاديث مع الصحافة
رسائل

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve
Other Stories.

MIKHAIL NAIMY

JOB

a play in Four Acts



Naufal Group sarl

BEIRUT - LEBANON

أيوب

مسرحية في أربعة فصول

... إذا كان للأمم الحية أن تزدهي بعباقرتها وأن تباهي بفلاسفتها وشعرائها وكتابها فقد حق لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا العصر.

ميخائيل نعيمه مدرسة انسانية فريدة، ومذهب ناصع من أنبل مذاهب الفكر الإنساني، العربي والعالمي.

" أيوب " بات أيوب مضرب المثل في صبره وهو الرجل المشهود له بالصلاح والتقوى، وبرغم ذلك فقد ابتلاه ربه بأقصى التجارب في ممتلكاته وعائلته وجسده "فلله في خلقه شؤون" !!

ذلك ما يجيب عنه هذه المسرحية بأسلوب أخاذ وبنائية أصولية مشوقة.

الناشر